الله والشاعر

لشاعر علي محمود طه

لا تفزعي يا أرضُ : لا تفرقي ... من شبح تحت الدجى عابرِ
ما هوَ إلاّ آدميٌّ شقيٌّ ... سُمّوهُ بين الناسِ بالشاعرِ

حنانَكِ الآنَ فلا تُنكري ... سبيلَهُ في ليلكِ الباسرِ
ولا تُضلّيهِ ولا تُغبري ... من خلفهِ المستصرخَ البائسِ

مُدّي لعينيهِ الرّحابَ الفساحْ ... ورفرفي الأضواءَ في جفنهِ
وأمسكي يا أرضُ عصفَ الرياحْ ... والرّاعدَ المنصبَّ في أذنهِ

أتسمعينَ الآنَ في صوتهِ ... تَهدُّجَ الأنّاتِ من قلبهِ ؟
وتقرأينَ الآنَ في صمتهِ ... تَمرُّدَ الرُّوحِ على ربهِ ؟

في وقفةِ الذاهلِ ألقى عصاهْ ... مُولّيَ الجبهةِ شطرَ الفضاءْ
كأنما يَرقُبُ الدجى ناظراهْ ... ليستشفّا ما وراءَ السماءْ

يَسقُطُ ضوءُ البرقِ في لمعهِ ... على جبينٍ باردٍ شاحبِ
ويستثيرُ البردُ في لفحهِ ... ناراً تلظّى من فمٍ ناضبِ

أنتِ لهُ يا أرضُ أمٌّ رؤومْ ... فأشهدي الكونَ على ضعفهِ
ورددي شكواهُ بين النجومْ ... فهوَ ابنكِ الإنسانُ في حيرتهِ!

ما هوَ إلاّ صوتكِ المرسلُ ... وروحكِ المستعبدُ المرهقُ
[illegible]

طغى الأسى الدّاوي على صوتهِ ... يا للصدى من قلبهِ النّاطقِ
مضى يبثُّ الدهرَ في خفتهِ ... شكايةَ الخلقِ إلى الخالقِ

لا تَعْذُلي يا أرضُ في محنتي ... ما أنا إلاّ آدميٌّ شقي
طردتني بالأمسِ من منتي ... فاغفرْ لهذا النائبِ المحتقرْ ؟

حنانك اللهمَّ لا تغضب أنت الرفيقُ القلبِ جمُّ الحنانْ
ان كنتُ في شكواي بالذنبِ فمنكَ يا ربِّ أخذتُ الأمانْ

ما أنا بازاري ولا الحاقدِ لكنني الشاكي شقاءَ البشرْ
أفنيتُ عمري في الأسى الخالدِ جئتُ أستوحيكَ لطفَ القدرْ

عُدتْ روحي على هيكلي وهيكلُ الجسمِ كما تعلمُ
ذاك الضعيفُ الرأيِ لم يفعلِ إلاَّ بما يوحي اليهِ الدمُ !

يَعْرُقُ حدُّ السيفِ من حدهِ ويحطمُ الصفوانُ بنيانهُ
وينخرُ الجرثومُ في عظمهِ وسنهُ يُنْبي القبرُ ديدانهُ !

ما هو إلاَّ كومةٌ من هبهْ تحقهُ اللمسةُ من غضبتكْ
فكيف يثني الروحَ عما تشاءْ ؟ وكيف يقوى وهي من قدرتكْ !

روحكَ في روحي ثبتُ الحياهْ نزلتُ دنيايَ على نورها
فإنْ جفاها ذاتَ يومٍ سناهْ لاذتْ بليلِ الموتِ في قبرها !

وَمِنْهما قدَّرْتَ صورتَها فروحكَ الصوتُ وروحي الصدى
طبيعةٌ في الخلقِ ركَّبتَها وما أرى لي في بناها يدا !

لكنَّما روحُكَ من جوهرٍ صافٍ وروحي ما صَفتْ جوهرا
أوَلاَ ؟ فما للخيرِ لمْ يُثمرِ فيها ؟ وما للشرِّ قد أثمرا !!

تقولُ روحي إنَّها سُلهمَهْ فهيَ لما قدَّرْتَهُ مُتبعَهْ
مقودةٌ في سيرها سُرْعَهْ وإنْ تراءت حُرَّةً طبْعَهْ !

قيَّدتَها بالجسمِ في عالمٍ تَسفحُ بالشهوةِ فيهِ الجسومْ
كلاهما في حبِّهِ الآثمِ لم يصحُ من سكراه وهو الملومْ !

تُبدي بهِ الأجسامُ سحرَ الحياهْ في معرضٍ يجلو غريبَ الفنونْ
نواسَ الأجفانِ حُمرُ الشفاهْ شديدةَ الإغراءِ شتى الفتونْ !

ولم أكنْ أولَ مغرًى بما أغرتْ بهِ حواء أو آدما
إربٌ تشقّى في دمي منهما ميراثهُ ينتظمُ النسلا !!

فأنتَ قدّرتَ عليَّ الشقاءْ من حيثُ قدّرتَ عليَّ النعيمْ
وما أرى !! هل في غدٍ لي نواهْ بالخلدِ ؟ أمْ سوايَ نارُ الجحيمْ ؟

ما اتّهمتْ روحي ولا أجرمتْ ولا طغى جسمي ولا استهترا
عناصرُ الروحِ بما أُهِمتْ أوحتْ الى الجسمِ فما قصّرا

كلاهما لم يَعْدُ تصويرَهُ ما كان إلاّ مِثلما كُوّنا
كم حاولا بالأمرِ تغييرَهُ فاستكبرَ الطبعُ وما أذعنا

أمنذري أنتَ يومَ الحسابْ ؟ ولائمي أنتَ على ما جرى ؟
رُحماكَ ! ما يُرضيكَ هذا العذاب لطبعٍ لم يَعْصِ ما قُدّرا !!

ما كنتُ إلاّ مِنقارُ كَبّتْ غرائزي : ما شئتَ لا ما أشاءْ
فلتجزِها اليومَ بما قدّمتْ وإن تكنْ مما جبلتَهُ براءْ !

وفيمَ تُجزى وهيَ لم تأمرِ ؟ ألستَ أنتَ الصانعَ الطابعا ؟
ألمْ تَسِمْها قبلُ بالميسمِ ؟ ألمْ تصُغْ قالبَها الرائعا ؟؟

ألم تصُغْها عنصراً عنصرا من أينَ ؟ ما علمي ؟ وأنتَ العليمْ !
جبلتَها يومَ جبلتَ الثرى من عالمِ الذرِّ ودنيا السديمْ

الخيرُ والشرُّ بها توأمانْ والحبُّ والشهوةُ في طبعها
حواءُ والشيطانُ لا يبرحانْ يُساقيانِ السحرَ في كأسها :

تشكّكتْ نفسي بما تنتهي إليهِ دنياها وماذا يكونْ !
مضتْ فما آبتْ بما تشتهي من حيرةِ الفكرِ وعجزِ الظنونْ !

رأتْ أساري في قيودٍ ثقالْ بين يدَيْ ذي مِرّةٍ يبتسمونْ
يسوقهم في فلواتِ الليالْ في بطشِ جبّارينَ لا يرحمونْ

إذ نحن في الأغلال منهم طليح ... أخرسه السوط الذي يُرهف
وإذ هوى للأرض منهم جريح ... أمهله في فيده يرشف

يا ويحهم ما عرفوا موئلا ... من قسوة الدهر وجور القضاء
يا أرض ما كنت لنا منزلا ... ما أنت إلا موبئ الأبرياء !!

أفي سبيل العيش هذا العراك ؟ ... أم في سبيل الخلد والآخرة ؟
وهؤلاء البائسون الجياع ... تطعمهم تلك الرحى الدائرة ؟؟

ما ذنب هذا العالم الثائر ؟ ... إن حاول الإفلات من أسره ؟
ما كان في ميلاده العار ... أسعد حالاً منه في حاضره !!

ما كان لو لم تنتزع آلامه ... بالماجن الروح ولا الهائم
ولو جرت بالعفو أيامه ... ما كان بالزاري ولا الناقم

رأى بعينيه المصير الرهيب ... وكيف غال الناس من قبله
وكل يوم للمنايا عصيب ... يسوقهم للموت من حوله !

فقر الدنيا وأزرى بها ... وقال : مالي انكر الواقعا ؟
فلتسعد النفس بأعجابها ... من قبل أن تلقى الغد الرائعا !

أيصبح الإنسان هذا الرسيم ؟ ... والجيفة الملقاة نهب التراب ؟
أيستحيل الكون هذا الهشيم ... والظلمة الجاثم فيها الخراب ؟

لمن إذاً تبدع تلك العقول ؟ ... أفي الردى تدرك ما غايتها ؟ ؟
أم في غير تدرى بتلك الطلول ... ويستر الدهر يراقبها ؟ !

وآسفا للعالم البائد ... ليس له مما يرى مهرب
على رنين المنجنين الخاسر ... مضى يغني .. وهو لا يطرب ..

فدعه ينسى بعض ما حمّلا ... من نكد الدنيا وضنك الحياة
وأوثر العطف الذي أمّلا ... فانه أولى بعطف الاله !

ما هي إلاّ لحظاتٌ فبصارْ ... تمرُّ مثلَ الومضِ في عينهِ
فإن مضى الليلُ وجاءَ النهارْ ... عاودَهُ الخالدُ من حزنهِ !

وما أتى العينُ ليعصى الالهْ ... يوماً ، ولا كانَ بهِ مُغرما
لكنْ ليبسي شقوات الحياهْ ... ومرَّها المستغلقَ المبهما !

يا شقيَّ القلبِ كم سامهُ ... توهّمُ النعمةِ ما لا يُطيقْ
يُريدُ أنْ يُقنعَ اوهامهُ ... بأنهُ ذاكَ الحليُّ الطليقْ

هأنذا ارفعُ آلامهُ ... إلى سماءِ المنقذِ الاعظمِ
أنا الذي تُرسلُ أنغامهُ ... فيثارةَ القلبِ ونايَ الفمِ

من عبراتي صُنعتْ هذا المقالْ ... ومن لهيبِ الروحِ هذا القلمْ
ملأتُ منهُ صفحاتِ الليالْ ... فعُمِّشتْ كلُّ معاني الالمْ

انا الذي قدَّستَ احزانهُ ... الشاعرُ الباكي شقاءَ البشرْ
فجرّتَ بالرحمةِ الخالدهْ ... فملأ بها يا ربِّ قلبَ القمرْ !

ما الشاعرُ الفنّانُ في كونهِ ... الاّ يدُ الرحمةِ من ربّهِ
مُعزّيَ العالمِ في حزنهِ ... وحاملَ الآلامِ عن قلبهِ

عزاؤهُ شعرٌ بهِ أهزجُ ... في نَغَمٍ مستعذبٍ ساحرِ
ما يحزنُ العالمَ او يبهجُ ... الاّ على قيثارةِ الشاعرِ

يا ربِّ ما اشقيتني في الوجودْ ... الاّ بقلبي : ليتهُ لم يكنْ
في المثلِ الأعلى وحبِّ الخلودْ ... حمّلتهُ العبءَ الذي لم يهنْ

خلقتهُ قلباً رقيقَ الشغافْ ... يهيمُ بالنورِ ويهوى الجمالْ
حلتْ لهُ النجوى ولذَّ الطوافْ ... بعالمِ الحسنِ روادي الخيالْ

بعثتهُ طيراً خفوقَ الجناحْ ... على جناحٍ ذاتِ ظلٍّ وماءْ
أطلقتهُ فيها قبيلَ الصباحْ ... وقلتَ : غنِّ الأرضَ لحنَ السماءْ

فهامَ في آفاقها انواسمهْ الثورُ يهفو حولَه والشَّدى
مُصفقًا للضحوةِ الناطعهْ وصُنبُلهْ ما شاء أنْ يُنشدا

إذْ جاء صيفٌ أو تجلّى ربيعْ حيَّاهُ منهُ عبقريُّ الغناءْ
وكم خريفٍ في نشيدٍ بديعْ تظلُّ تروبه ليالي الشتاءْ

قيثارةٌ تصدرُ في فنها عن عالم السحر ودنيا الخفاءْ
على الغدى الحائر من لحنها يستيقظُ الفجرُ ويغفو المساءْ

مشتْ على الأمواجِ أنغامُها والأرضُ قيدَ النشوة المسكره
كأنّما رقصُ أحلامُها في ليلةٍ شرقيةٍ مُقمره!

من قلبهِ أسلمتْ أوتارَها فقلبُهُ يخفقُ في كفّهِ
يشدو فتُملي النفسُ أسرارَها عليهِ نهيُ اللحنُ من عزفهِ

ذاتَ صباحٍ طار لا يُطيلُ والأرضُ سُكرى من عبير الزهورْ
على حصاها رنَّمَ الجدولُ وفي دواليها تُغنّي الطيورْ

ما كان يدري قبلَ ان ينظرا ما خبّأتْهُ النظرةُ العاجله
ما أبدعَ الحلمَ الذي صوّرا لو لم تُشبْهُ اليقظةُ القاتله!

مرَّ بنهرٍ دافقٍ سلسبيلْ تهفو القهاري حوله شاديه
في ضفتيهِ باسقاتُ النخيلْ ترعى الشياهُ تحتها ثانيه

فهاجت النظرةُ مما رأى في قلبهِ السحر وفي عينهِ
الكونُ يبدو وادعًا هانئًا كأنهُ الفردوس في أمنهِ

فظلَّ في التفكير مستغرقا من فتنة الدنيا ومن سحرها
ما كان الا ريثما حدَّقا حتى حلتْ دنياهُ من سرّها

رأى بعينيهِ التي لم ترَهْ الذئبَ والشاةَ وحربَ البقاء
ما عرفَ القتلَ ولا ابصرهْ ولا رأى من قبلُ لونَ الدماء!

ما هي إلاَّ صرخاتُ الفزعْ وصيحةُ المقتولِ والقاتلِ
قد انقضى الامرُ كأنْ لمْ يقعْ وضاع صوتُ الحقِّ في الباطلِ

وبعدَ ساعاتٍ يُوَلّي النهارْ ويقبلُ الليلُ وما يعلمُ !!
سيلبثُ السرُّ وراءَ الستارْ ويختفي الثلمُ ويُمحى الدمُ !!

فرُوِّعَ الشاعرُ مما رآهُ وهامَ في الارضِ على وجههِ
أين ترى يا ارضُ يُلقي عصاهُ ؟ وأيُّ وادٍ ظلَّ في تيههِ ؟

حتى اذا شارفَ ظلَّ الشجرْ في روضةٍ غنّاه ربّا الأديمْ
قد ضحكتْ للنورِ فيها الزهَرْ وصفّقتْ اوراقُها للنسيمْ

إختارَ في الظلِّ له مقعدا في ربوةٍ فاتنةٍ ساحره
أذابَ فيها الشفقُ المسجدا وناعمتها النسمةُ العاطره

بينا يجُيلُ العينَ في سحرها إذ أبصرَ الظلَّ بها مُطرقا
قد انتحى الاطيارَ في وكرها فنامها من نابهِ موثقا

هل سمعتْ أذناكَ قصفَ الرعودْ في صخبِ الريحِ ورجفِ البحارْ ؟
هل أبصرتْ عيناكَ ركضَ الجنودْ في فزعِ الموتِ وهولِ الفرارْ ؟

إن كنتَ لم تبصرْ ولم تسمعِ فَقِفْ الى ميدانها الاعظمِ
ما بين ميلادكَ والمصرعِ ما بين نابيْ ذلكَ الأرقمِ !!

جريمةُ الغدرِ وسفكِ الدمِ جريمةٌ لم يخلُ منها مكانْ
يا لجةَ كلٍّ إليها ضمي قد حازَ طوفانُكِ شمَّ القنانْ !

من علّمَ الوحشَ الاذى والقتالْ ؟ ومنْ فيهِ الشرَّ أو ألهمهْ ؟
من علّمَ الثعبانَ هذا الختالْ ؟ والحيوانَ الغدرَ من علّمهْ ؟

يا أرضُ هذا الوحيُ من عالمكْ الطينُ والماءُ به يشهدانْ
ظلمتِ إنسانكِ ما أظلمكْ إذ سمتهِ بالاسرِ غيرَ الجنانْ !

يا ضلّةَ الشاعرِ أينَ النجاةْ وأينَ أينَ المفرُّ الآمنُ
أكلُّ وادٍ زلّتْ خطاهْ طالعةٌ منهُ الرّدى الكامنُ ؟

حتى اذا ضاقتْ عليهِ السُّبُلْ وعزَّ في الارضِ عليهِ المقامْ
أوى الى كهفٍ بسفحِ الجبلْ عساهُ يقضي ليلهُ في سلامْ

ما كانَ إلاّ حُلُماً كاذبا أفاقَ منهُ مستطيرَ الجَنانْ
البحرُ يرغي تحتهُ صاخبا والشهبُ نارٌ والدياجي دخانْ

الارضُ من أقطارها راجفه كأنما طافَ عليها المنونْ
تضجُّ في أرجائها العاصفه كأنما الناسُ بها يحشرونْ !

ثم استقرَّ العالمُ الثائرُ وأقبلَ النورُ وولّى الظلامْ
واعجباً مما يرى الشاعرُ كأنما أمسى بوادي الحِمامْ !

بَدتْ لهُ الارضُ كقبرٍ عفا إلاّ بقايا رِمّةٍ أو حجرْ
قد أصبحَ القاعُ بها صفصفا فما عليها من حياةٍ أثرْ

مَرَرْتُ بالبُلدانِ مُستعبرا أبكي الحضاراتِ وأرثي الفنونْ
أنقاضُها تملأُ وجهَ الثرى وكمْ بالامسِ ثارَ الفتونْ !

أنّى على اليابسِ والاخضرِ الموجُ والنوءُ وسيلُ الحُمَمْ
يا رحمةَ اللهِ اهبطي وانظري ماحصدَ الموتُ ودكَّ العدمْ ! !

أيستحقُّ الناسُ هذا العقابْ ؟ أم جانتْ الساعةُ من تقمتك !
ما احتملوا يارَبِّ هذا العذابْ الا رجاء الثوب من رحمتك

أما ترى مفرجاتِ الشفاهْ عن آخرِ الصيحاتِ من رعبها ؟
ما زالَ فيها من معاني الحياهْ إيماءةُ الشكوى إلى ربها !

وهذه الأعينُ سُهبُ العفاء في رقدةِ الموتِ كأنْ لم تنمْ
محدّقاتٍ في نواحي السماء تُشهدها على الأسى والألمْ .

وهذه الايدي تحوط الصدورْ كأنها في موقفٍ للصلاهْ
لم تنسَ في زحمة الحياة الغرورْ ضراعةً ترسمها للإلهْ !

ما عرفتْ في صعقاتِ الردى إلاّكَ من غوثٍ ومن منجدِ
ولا سرى في الارض منها صدى إلاّ ودوّى باسمك الأمجدِ !

أعبرةً تذكرها كلَّ حينْ للعالمِ الذاكرِ إمّا نسي ؟
أمْ ضرباتٍ قاسياتٍ تلينْ بهنَّ قلبُ الفظِّ والأشرسِ ؟

أم موجةُ الطهرِ التي تغسلُ ما آثمَ الكونِ وتمحو أذاهْ
يا ربِّ رضّنا بالذي نحملُ حسبُنا آلامُنا في الحياهْ !!

ألمْ تُطهّرْ ذلك العالما من كلِّ عاصٍ أو غويٍّ جموحْ ؟
ما غادر الموجُ به قائما يومَ احتوى الاعلامَ طوفانُ نوحْ!

إذاً فما للناس ضلّوا الهدى ؟ وأخطأوا اليوم سبيلَ الرشاد ؟
لعلَّ نوحاً أخطأ المقصدا فأغرقَ الخيرَ ونجّى الفسادْ !!

يا ليتَهُ لما دعا بابنهِ وحالتْ الأمواجُ أنْ يُنسما
لجَّ عليهِ القلبُ في حزنهِ فلم يَرَ الجوديَّ لمّا دعا !!

يا أرضُ ولّى عهدُ نوحٍ وزالْ فمن لكِ اليومَ بطوفانهِ
مسكينةً تغوينَ بحرَ الضلالْ قد عزَّكِ المرمى بشطآنهِ !

إلامَ تطوين عبابَ السنينْ شوقاً إلى فردوسكِ الضائعِ ؟
غرّرتِ يا أرضُ بما تحملينْ فاستيقظي من حلمكِ الخادعِ !!

وابقَ كما أنتَ على موجهِ تمزّقُ الانواءُ منكَ الشراعْ
يقذفكَ التيّارُ في لجّهِ عشواءَ لا يهديكَ فيهِ شعاعْ !

سلي القداساتِ وأربابَها ضراعةً تُصغي اليها السماءْ
أو فاطرقي بالبشرِ أبوابَها لعلّها ترفعُ عنكِ الشقاءْ !

يا أيها الغادون والرائحون ... في شعب الارض وليل الهموم
تسعون أشتاتاً كما تسعون ... والشمس حيرى فرقكم والنجوم

مدوا لها الايدي وولوا الجباه ... وأرسلوها صيحة واحدة
قولوا لها : يا من شهدت الحياه ... من أين تلك النظرة الجامدة ؟

من أين تلك النظرة الهادئة ؟ ... والقسمات المشرقات الجبين ؟
هل أنت من آلامنا هازئة ؟ ... أم أنت يا أعين لا تبصرين ؟!

أم هكذا أوحى اليك القضاء ... فما عرفت الحزن والأدمعا ؟
يا أيها الناس اضرعوا للسماء ... قد آن أن تصغى وان تشفعا

هاتوا الازاهير وهاتوا الغصون ... وكل ما يحلو وما يجمل
قد آن أن تفعلوا ما تشعرون ... فأشعلوا النار بها أشعلوا !!

أو ملأوا من زهرها اليانع ... مجامر النار وألقوا البخور
وردّدوا في ذلة الضارع ... انفاسكم نشوى بتلك العطور

أحببت بها من أنة عاطره ... في مسمع الأملاك إذ تصعد
أسداؤها الرقة الحائره ... في وجهها الآفاق لا توصد !!

يا أرض ناديتُ فلم تسمعي ... أنكرت صوتي وهو من قلبك
لا تفرقي مني ولا تفزعي ... من شاعر شاك الى ربك

أيتها المحزونة الباكية ... لا تيأسي من رحمة المنتقم
لعل من آلامك الطاغية ... إذا دعوت الله من منفذ !

فابتهلي لله واستغفري ... وكفكفي عنك بنار الألم
وقدمي التوبة واستطري ... بين يديه عبرات الندم !!